مكامن إعجاز نظم القرآن والتمرين فيه في ملكة اللسان العربي عند غير ذوي الفطر السليمة.

الدكتور مصطفى طويل.

أستاذ محاضر "أ"

الهاتف: 0664097116.

البريد الالكتروني: mustapha 1964touil2014@gmail.com

جامعة حسيبة بوعلي – الشلف (الجزائر)

تاريخ الاستلام:2019/05/28 تاريخ القبول:2019/12/20

الملخص:

مما لا شك فيه أن إعجاز القرآن عموما، وإعجازه البياني على وجه الخصوص لا يدرك إلاّ من طرف ذوي الفطر السليمة كحال السليقيين، والرعيل الأول من الصحابة والتابعين الذين تلقوا القرآن غضا طريا، وكذا أولئك النماذج الذين أوتوا سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام، أما غيرهم من ذوي الفطر غير السليمة القاصرين عن مرتبة أهل الفصاحة فهم بحاجة إلى من يبصرهم بوجوه إعجاز القرآن بإتقان علمي المعاني والبيان، والتمرين فيهما،

المنارة للاستشارات

وبذلك فقط تملك لديهم وجوه أسالي العربية، وكذا المبالغة في قراءة القرآن، والتمعن في أساليبه لتذوقها، وبالتالي إدراك شيء من هذا الإعجاز الخالد.

أروم في هذه الورقة البحثية تبيان كيفية حصول ملكة اللسان العربي- وهو داخل ضمن تعليمية العربية- عن طريق تحفيظ المتعلمين الناطقين بالعربية أو بغيرها للقرآن الكريم، والتمرنة في منازع الأساليب اللغوية ومناحي القرآن البيانية ولمساته الذوقية من خلال مدونة أهل الإعجاز والبياني القدامى، وكذا الدارسين المحدثين لتعابير القرآن وأساليبه.

المداخلة:

قبل الحديث عن الإعجاز البياني للقرآن و بيان كيفية تعليمه اللغة للمتعلمين، لا بد أن نعرّج على معرفة اللسان العربي الذي نزل به القرآن الذي وصفه الله بأنه لسان عربي مبين و ما هو الطريق الذي انتهج لبناء صرح العربية المبينة، إنه مصدر أودع الله فيه حكمته البالغة التي لا يحيط بها خُبْرا أحدٌ مهما أوتي قوة بيان وعلوَّ كعب في الدرس البلاغي، وإن ما قاله العلماء في هذا الشأن لا يفي أسرار هذا اللسان حقّه من الدقة والبراعة والانضباط والإبلاغية، وغير ذلك مما هو متداول من مصطلحات تخص الإعجاز القرآني[1] وبيانه وتبيانه.

المنارة للاستشارات

وهذه الحقيقة الساطعة جعلت في كل عصر جهابذة العلماء يشتغلون على معرفة هذه الأسرار البيانية، وكذا معرفة سرّ أخذ القرآن بشغاف القلوب.

مما هو مقطوع به أن العرب كانوا في جاهليتهم، بل في كل عصور البيان والفصاحة يشتغلون على تهذيب هذا اللسان والرقي به، وبالخصوص قبيلة قريش باعتبار أن أهلها كانوا أشد القبائل تهذيبا للغتهم باعتبارهم كانوا في مكة مأمّ الزوار والتجار وملتقى التباري والتنافس الأدبي، فكانوا يصطفون من اللغات ما ارتأوه أفصح، كما اختاروا ما استحكم من التراكيب والأساليب والمخاطبات والتعابير المسكوكة، هذه الأخيرة التي غدت تدور على ألسنتهم في شكل أمثال وحكم ومأثورات، وكانوا يذرون الكلمات التي تسعتصي على الألسن، وتنفر منها أسماعهم التي عرفت بتذوق موازين الشعر، وجمال التراكيب، ومعرفة فصل الخطاب.

فما أدار العرب ذوو السلائق الرفيعة على مقاولهم سوى تلك الألفاظ الندّية ذات الجرس الموسيقي الأخّاذ، وهجروا كل ما كان به نشاز ونفور، أو ما يعرف في عرف البلاغة بالألفاظ المتنافرة غير الفصيحة، وهذا لأنهم اعتبروا البيان صناعة فعملوا على تهذيبها من كل ما يزري بها أو يشين نصاعتها ويكدّر بيانها، وكل ذلك عن طريق التهذيب الاستعمالي "الطبيعي"، وقد انتجوا شعرا كان ديوانهم يدخل في دائرة بيانهم التي تنمّ "عن قدرتهم على تصريفه بألسنتهم وتمكنهم من تذوّقه

المنارة للاستشارات

بأدقّ حاسة في قلوبهم ونفوسهم وعلمهم بأسراره، وتغلغلهم في إدراك الحجاز الفاصل بين ما هو من نحو بيان البشر، وما ليس من نحو بيانهم، أهل الجاهلية هؤلاء هم الذين جاءهم كتاب من السماء..."[2] وذلك قبل أن تأتي البلاغة عبر مسيرتها الطويلة لكي تؤسس لمقاييس البلاغة البيانية، وضوابط الفصاحة اللغوية بعد أن ضعفت الملكة البيانية في القرن الخامس الهجري والقرون التي تلته، وبدأت الفصاحة لدى المستعملين تزورّ عما كانت عليه من براعة على ألسنة العرب الفُصَّح، وما ذاك إلاّ لأن ما كانت تقوم به العرب وفي مقدمتهم قبيلة قريش التي كانت تهذب لسانها بعد سماع لغات الوافدين عليهم " فكانوا يسمعون لغات العرب ويأخذون ما استحسنوه فيها، فيديرون به ألسنتهم ويجرون على قياسه"[3] أي أنهم كانوا ينسجون على المنوال ويتكلمون بتلك المجاري والنسوج حتى ارتفعت لغتهم عن كثير من مستبشع اللغات ومستقبحها، وبذلك "مرنوا على الانتقاد حتى رقّت أذواقهم وسمت طبائعهم وقويت سلائقهم، وحتى صاروا من آخر أمرهم أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا، وأبينها إبانة عما في النفس"[4] ونتيجة هذا العمل التهذيبي ظهرت في نزول القرآن الكريم بلغة قريش.

والذي يهمّنا في هذا المقام الأسباب اللسانية، وهو أن كلّ ما قبلوه في لغتهم أو عزفوا عنه مردّه إلى نظرية الثقل والخفة، والرافعي أكد هذه الحقيقة بقوله" أن كل ما رفضه العرب في الجملة، أو عدلوا عنه إلى

المنارة للاستشارات

غيره من هيئات المنطق، فإنما فعلوه استثقالا، وكل ما قبلوه أو عدلوا إليه فلخفته على ألسنتهم، وهذا مذهب من يستبطن أسرار لغتهم وتتبع هيئاتها وتراكيبها."[5]

إن هذا الطريق الذي اتبعه العرب في تهذيب لغتهم يصلح أن يكون **منهجا قويما لتعليم العربية لغير ناطقيها وكذا لأصحاب اللغة العربية الأم الذين عدموا الفطرة السليمة " الفطرة البيانية"**، ولكن بطريق التلقين، وهذا السيوطي يقول" إن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه، وما يدركه إلاّ العلماء النوابغ، ولذا لا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطر السليمة، إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما."[6]

إعجاز القرآن الكريم وتعليم ذوي الفطر غير السليمة:

لا شك أن تعليم العربية والبيان لغير ذوي الفطر السليمة- وأسباب التشويه كثيرة أهمها البيئية- يختلف عن طرائق تعليم ذوي الفطر السليمة، لأن الصنف الأول كما يقول السيوطي لا يتأتى لهم ذلك إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما، والتمرين فيهما لا كتابة فقط، وإنما ممارسة وتخاطبا والأهم من هذين معا هو التواصل مع النص القرآني، ومنازع الشعراء السليقيين.

وقبل أن نسترسل في هذا الطريق التعليمي التعلمي لا بد أن نفرق بين أمرين مهمين أشار إليهما عبد القاهر الجرجاني وهو أن " معرفة فضل

المنارة للاستشارات

الكلام ودرجته وطبقته معرفة تسبق الدرس البلاغي، وهي راجعة إلى ثقافة الدارس وطبعه وخبرته بالشعر والأدب، ثم يأتي الدرس البلاغي ليبيّن سبب الفضل وعلّة الحسن، وهذا ظاهر في أن البلاغة ليست أداتنا لمعرفة الجيد، وإنما هي أداتنا لمعرفة الجودة" [7]

ما الفرق بين معرفة الجيد ومعرفة الجودة؟

1/ معرفة الجيد:

طريق معرفة الجيد من المخاطبات شعرية كانت أو نثرية هو ما أبرزه محمد أبو موسى في مقدمة كتابه "الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء" حيث يقول لا شك أن كل مسائل البلاغة وكل أصول النقد هي ثمرة هذا الضرب من القراءات، حين يتجوّل القارئ بعينه وحسّه وذائقته ويقلّب الشعر ويتدبره ويتذوقه حتى يقع منه على شيء هو مكمن من مكامن حسنه وسرّه، ولا أجد مسألة بلاغية واحدة إلاّ وهي راجعة إلى مستقرّها في الشعر والبيان."[8]

المنهجية الصحيحة التي يتعلم من خلالها المتعلمون اللغة هي معرفة الجيد من الأساليب العالية، وطريق هذا هو مداومة قراءة دواوين العرب الإبداعية شعرا كانت أو النثرية منها، وهي ما يعرف بعيون الأدب في مختلف الأغراض والمعاني والموضوعات، وإذا ما أراد العلو في كعب الأساليب لا بد أن يتجاوز المتعلم تلك النصوص إلى الكتاب العزيز ، وبه يتجاوز " قدرة البيان الإنساني فيما لا يُستطاع عندها نصبح أمام

المنارة للاستشارات

كنز آخر من كنوز البلاغة" [9] وهو ما يعرف بإعجاز القرآن ولكن تذوقا في مرحلته الأولى عن طريق الحفظ والتكرار قبل أن يلج عالم التدبر لإدراك مكامن الجودة فيه.

وهذا المنهج يدل عليه" إعجاز القرآن، أي أن اللسان العربي عند أهل العلم دال دلالة قاطعة على أمور ثلاثة:

-الأمر الأول:

بلوغ العربية مرتبة أعلى من حيث توفّر وسائلها وثراء طاقاتها المتمثلة في أحوالها وخصائصها التي تدل عليها صور سبكها من حيث المفردات والتراكيب والأساليب بل الخطابات عموما، وهذا يعني كما قال ابن جني في العربية وخصائصها" تدل على رهافتها في سياسة المعاني وحيازتها، وتدسسها في غوامض القلوب والنفوس"[10]

وهذا العمل لم يكن من فراغ وإنما "هو عمل هيّأته أجيال متلاحقة ذات قوى متينة مكينة هم ألطف أذهانا، وأسرع خواطر، وأجرأ جنانا، وأن هذه الأجيال تواكبت على هذا اللسان فأنضجته." [11]

والأمر الثاني :

ويكمن في تعهّدنا هذا المهيع المضبوط في أولى المراحل العمرية. هذه المراحل يحصل فيها على البلاغة والبراعة، ويرجع كثير من ذلك "إلى

المنارة للاستشارات

اللغة نفسها، وليس إلى الجنس من حيث هو جنس، و أنّ هذه اللغة بتفاضل طرائقها وهي التي أثارت الملكة البيانية عند هذا الجيل- جيل ابن خلدون- والأجيال قبله واستقرت هذه الملكة حتى بلغت أقصى ما تستطيعه فطرة البيان في هذا الإنسان"[12]

وهنا يحق لنا أن نثبّت هذا المصطلح الخلدوني " **ملكة البيان الفطري**" وهذه الملكة تمد الفرد بالمعطيات اللسانية في كل أبعادها التي استطاع الرافعي أن يرصدها بدقة متناهية حيث أفرد في كتابه تاريخ آداب العرب في جزئه الأول بالكلام في إعجاز القرآن الكريم وفي البلاغة النبوية" ....قصرنا من ذلك على ما كان مرجع أمره إلى اللغة في وضعها ونسقها والغاية منها إلى ما يتصل بجهة من هذه الجهات، أو يكون مبدأ فيها أو سببا عنها، أو واسطة إليها، وهذا هو وجه الإعجاز الغريب الذي استبد بالروح اللغوية من أولئك العرب الفصحاء، فاشتملت به أنفسهم على خلق من العزيمة الحذاء دائبا لا يسكن كأنه روح زلزلة فلم تزل من بعده ترجف بهم الأرض حيث انتقلوا."[13]

والأمر الثالث:

هو محبّة الرعيل الأول للقرآن، ذلك النص الذي أخذ بشغاف قلوبهم فلا تراهم إلا وهم يردّدون القرآن الكريم يتشربون أساليبه، ويُغْنُون به معجمهم اللغوي، وهو المحيط الذي غرفوا منه جميعا، وهو الذي جمع هؤلاء القوم على لغة واحدة بما استجمع فيها "من محاسن هذه

المنارة للاستشارات

الفطرة اللغوية التي جعلت أهل كل لسان يأخذونها ولا يجدون عنها مرغبا، إذ يرونها كمالاً لما في أنفسهم من أصول تلك الفطرة البيانية."[14]

إذن تعهد النصوص بتكرارها عن طريق التمارين البنوية التكرارية مشافهة وقراءة وسماعا وتسميعا يترك الناشئة سواء كانوا من غير ناطقي اللغة العربية، أو كانوا من أولئك الذين تشوهت فطرهم السليمة يتركهم يمتلكون ملكة العربية التواصلية، وإن لم تكن كحال تلك الملكة الفطرية فهي قريبة منها في حروفها وفي مجاري تراكيبها وفي خصائص أساليبها وفي استحكام نصوصها.

2/ معرفة الجودة:

هذه المعرفة تأتي في المرحلة الثانية، وهي تتعلق بالنظر في الوجوه البلاغية، وما أكثرها فهذا السيوطي يجعل في كل لون من ألوان المقاييس البلاغية وجها من وجوه الإعجاز البياني.والسيوطي نفسه يفتح المجال أمام الإعجاز ولا يغلقه فقال" والصواب كما قال السكاكي "أنه لا نهاية لوجوه إعجازه، وذلك لأن إعجاز القرآن يدرك، ولا يمكن وصفه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها."[15]

إذن وجوه إعجازه البياني كثيرة لا تعد ولا تحصى، غير أن جماعها هو" حسن تأليفه، والتئام كلمه وفصاحتها، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام وأرباب هذا الشأن، فجاء نطقه العجيب، وأسلوبه الغريب مخالفا لأساليب كلام العرب، ومنهاج نظمها

المنارة للاستشارات

ونثرها الذي جاءت عليه، ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له." نعم هذا هو إعجاز القرآن الذي استمرت الفصاحة والبلاغة فيه في جميع أنحائها كما قال صاحب منهاج البلغاء حازم القرطاجني.[16]

ومما يتميز به أسلوبه الغريب الذي يخالف أساليب كلام العرب، تلك الخصائص العامة والخاصة. وأعرافه وتقاليده النظمية، كافتتاح السور وخواتمها" وهو ما يعرف ببراعة الإستهلال، وحسن الخلوص، والمحكم والمتشابه، وقد انجّر عن هذه الوجوه الكثير من الضوابط البلاغية والتأويلية ،كأن لا يصرف اللفظ عن الراجح إلى المرجوح إلاّ بدليل منفصل، وهو إما لفظي وإما عقلي.[17]

والمبدأ الآخر المتعلق بمذهب التأويل الذي وقف فيه دقيق العيد هو التوسط بين مذهبين متعارضين فقال:" إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم ينكر، أو بعيدا توقفنا عنه، وآمنا بمعناه على الوجه الذي أُريد به التنزيه...[18]

هذا النوع من النظر البلاغي في التعبير القرآني لا يبحث في النحو والصرف من حيث هو علم -أو كنظرية- ذو قواعد مضبوطة وإنما يفتح المتلقين على النظر في ما بنيت عليه اللغة العربية من الدقة والحكمة في أصولها النحوية، وكذا فيما عرفت به من اللطف والبراعة.

المنارة للاستشارات

ومعرفة الجودة هذه تعمق فهم القرآن عن طريق معرفة أسرار تعابيره اللفظية والتركيبية، والأسلوبية والتخاطبية، والتفسيرية والتأويلية، وبالتالي التمسك بالقرآن وبأحكامه، وبكل ما يدعو إليه، والثمرة المجناة هي الوقوف على وجوه هدايته ليصلح حال المستمسكين به في دار المعاش والمعاد، بمعنى أن الإنسان ينتقل من الإعجاب بوجوه الأشكال إلى التشبث بكل ما يدعو إليه من أغراض بمصطلح عبد القاهر الجرجاني أو قصود كما الشأن عند صاحب الموافقات، لأن السليقيين لم يكن نظرهم في النص القرآني درسا بحثيا مخبريا، بقدر ما كان بحثا منهم حثيثا في ما يسعد الإنسان في حياته وما يضمن له السعادة الأبدية في أخراه.

و محمد أبو موسى قال كلاما من ذهب" وهذا يعني ضرورة أن يظل القرآن مقروءا ومفهوما عند الكافّة، فلا بدّ أن يكون كلامهم إلى كلامه، وأن تكون آذانهم ألوفة دائما لبيانه حتى يظل فعله في القلوب قائما..."[19]

هذا من جهة ومن جهة أخرى يجعل المتعلم يحب القرآن ويزداد تعلقا به لما به من طلاوة في أساليبه وحلاوة في مضامينه أحلى من أري الجنى. وهذه الثمار لا تجنى إلا بدليل يأخذ بأيديهم ليبصرهم بأسرار التعبير القرآني....وبعدها يمكن للواحد أن يقرأ بعقل متفتح وقلب يقظان وأن يصبر على ما لم يسبق له به علم من أمور اللغة حتى يعيها[20]، وكل ذلك بعدما تكون نفسه قد شربت من بحر جمال القرآن قراءة وسماعا.

المنارة للاستشارات

هذه المحطة تناسب المتعلمين الكبار الذين نضجت ملكاتهم الإدراكية ، واكتسبوا الكثير من قواعد العربية عن طريق مراودة كتب التفسير والإعجاز والبلاغة والنقد وكتب العلوم المساعدة على ذلك كالعلوم الإنسانية وكتب المناهج وغيرها.

وليس الغرض منها هو التلاعب بالمصطلحات البلاغية لذاتها، وإنما من أجل أن نكون على طريق الجيل الذي نزل فيه القرآن الذي بلغ" في القدرة على الإبانة عن نفسه حدّا لم يبلغه جيل من أجيال الأمة في تاريخها كلّه... فهُمْ عند أهل العلم **الجيل والأجيال التي قبلهم هم من فجروا ينابيع الكلام فاستقوا ومثلوا لهم مثلا في البلاغة فاحتذوا**".[21]

وهؤلاء النماذج على اتساع تلك الشريحة يمدنا بالقدرة على تذوّق اللغة والقدرة على تلقي خوافي أسرار الشعر والأدب، بعدما كانت عندهم كفاءة على اصطناعها في الإبانة عن المعاني لأن من يحكم اختيار ألفاظه وتراكيبه وصوره لا بد له من ذوق يعينه على ذلك، ومن هنا يكون أعرف الناس بطبقات الكلام **أقدرهم على صوغه** أو **من دُفع في مضايقه**."

التحليل الديداكتيكي للخطة التي تجعل من الإعجاز البياني يؤدي دورا في تعليم العربية، والتمكن من بناها كمجارٍ نحوية، وأساليب

المنارة للاستشارات

بلاغية، تمكنًّا استعماليا، و كذا على مستوى تحليل تلك المُثُل لينابيع ذلك الكلام الذي فجّروه في إبداعاتهم وحواراتهم التي سجلتها كتب تاريخ الآداب والعلوم والفنون، وبالخصوص مدوّنات الأدب واللغة.

المُثُل البلاغية: هي تلك النصوص الرفيعة التي يستشهد بها في الدرس البلاغي شعرية كانت أو نثرية أو آي القرآن. وقد صارت هذه النماذج أنماطا لمُثُل بلاغية يحفظها الدارسون كما حُفِظت من قبل الشواهد النحوية التي تستحضر القاعدة. فمثلا استحضار قوله تعالى:" وجعلوا لله شركاء الجنّ"، وكذلك قوله تعالى:" قل إنّما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن" الأعراف: 33. وهذا كمثال لـ"إنّما" حيث يكون المعنى: ما حرّم ربي إلاّ الفواحش". ويعضّد هذا الشاهد الشاهد الشعري للفرزدق:

أنا الذائد الحامي الذمار، وإنّما   يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي.

أي: " ما يدافع إلاّ أنا أو مثلي" ولو لم يكن كذلك، لقال:[22]" أدافع" و" أقاتل"

والنماذج كثيرة ليس المحل محل ذكرها في هذا المقال. لكن ما يهُمّنا هو أن المتعلمين عند استيعابهم لهذه النماذج وحفظها يؤسس إلى تكوين ملكة بلاغية نصيّة. وهذا ما يفسره أن "أكثر الناس معرفة بطبقات الكلام هو أقدرهم على صوغه" وهذا ما يعرف بالنسج على المنوال. فما

المنارة للاستشارات

بالك بمن يحفظ القرآن الكريم ويتشبّع بأساليبه حتى تصبح مستعملة في كلامه وحديثه وكذا في إنشاءاته الإبداعية.

وأمّا من دُفِع في مضايقه:

وهم أولئك الذين جاءوا بعد الطبقة الأولى، التي عاصرت السليقيين وسمعوا عنهم، واشتغلوا على تلك المدونة فحصا وتحليلا وضبطا للقواعد، وهم أولئك العلماء الذين تفحصوا النصوص ولامسوها ،وكان لهم حسّ حس يداني الفصحاء لمداومتهم النظر في تلك النصوص، وخاصة النص القرآني.

وفي عصرنا يمثله الدارسون الذين يفحصون النصوص ويشتغلون على بعث الدرس البلاغي من جديد، بل والنظر أيضا في هذه النصوص للوصول إلى مقاييس لم يقف عليها القدامى،لأنه كم ترك الأول للأخير.

وهؤلاء النماذج هم من يحّبب البيان للناشئة، ويكشف لهم قلائد البيان وعقيان البديع.

ملاحظة:

لابد من إعادة النظر في ما يحدث في المنظومة من تلك الطرائق التي تهمل تدريس البلاغة من نصوص القرآن، وتكتفي بالنصوص الأخرى ولو كانت إبداعية، ولكنها لا ترقى إلى مصاف إبداع ذوي السليقة، ونصوص بلاغة الإعجاز القرآني هذا النص الذي لا ينضب، لأن كل

المنارة للاستشارات

النصوص كما سبق أن قلنا تؤول إلى نصوص القرآن الكريم بلاغة وإبلاغية. وحتى المقاربة اللسانية النصية لا بد أن تنحو هذا المنحى، وخاصة إذا فعّلناها بتحليلات المفسرين البيانيين الذين سبروا أغوار الأساليب، فعرّفوا بخصائص القرآن المتفردة.فما أحوجنا إلى فك شفرات منهج هؤلاء المفسرين البيانيين وطرق التحليل عندهم، وكذا اللغويين الكبار كابن جني وعبد القاهر الجرجاني، وأضرابهم والعمل على تطبيقها في تدريسنا للنصوص وما يبنى عليها من أنشطة اللغة العربية المختلفة.

الكفاءات التي يجنيها ذوو الطبع الفاسد من أهل العربية، وغير ناطقي اللغة العربية:

أولا:فئة ذوي الطبائع الفاسدة من أبناء العربية:

هؤلاءيَردُّون إلى السبيل القويم سبيل العرب الخلّص فصاحة- وهم على ذلك أقدر- لأن ألسنتهم مرنة ميسّرة لأداء العربية أداء صحيحا يقدّم للحرف العربي حقّه مخرجا، ومستحقّه صفة، كونهم رضعوا هذه التأديات عن أهليهم وذويهم، لكن الذي ينقصهم هو:

- تعويد أسماعهم على سماع لحن اللغة الطبيعي، أي على طبيعتها في الأساليب القرآنية في سياقاتها داخل السور، أو الآي التي تحتضنها، ومن ثمّ حفظها حفظا وتكرار تأدياتها حسب رواياتها التي أُقرئوها ولا أعني تلك التأديات الصوتية التجويدية أو " ما ابتدع في القراءة

المنارة للاستشارات

والأداء، هذا التلحين الذي بقي إلى اليوم يتناقله المفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم ... كالترعيد والترقيص والتطريب والتحزين"[23]، وإنما تلك القراءات التي كان يؤديها الرعيل الأول، والسلف الصالح، كقراءة التحقيق أو الحدر أو التدوير.[24] وهذه القراءة هي التي "كان يؤديها الصحابة والتابعون بأفصح مخرج وأسراه، فكأنما يُسمع منه القرآن غضا طرِيا لفصاحته، وعذوبة منطقه، وانتظام نبراته، وهو لحن اللغة نفسها في طبيعتها، لا لحن القراءة في الصناعة."[25]

وهذا الوجه يشارك فيه هذه الفئةَ فئةُ الناطقين بغير اللغة العربية على اختلاف جنسياتهم.

- إثراء المعجم اللغوي بلغة القرآن" المتن اللغوي"، وحسن اختياره في المقامات التواصلية التي تناسبها، كمقام التأدب والتوجيه والحجاج، والبرهان وغير ذلك، " ومحصّلته أن تلك اللغات على اختلافها تتفق في المعنى الذي من أجله صار العرب جميعا يخشعون للفصاحة من أي قبيل جاءتهم،، وهو مناسبة التركيب في أحرف الكلمة الواحدة وملاءمتها للكلمة التي بإزائها، ثم اتساق الكلام كله على هذا الوجه البديع."[26]

والترداد على القرآن يحيلك على أكثر من أربعين لغة عربية. وهذه اللغات استجمعتها لغة القرآن في منطق الكلام: كتحقيق الهمز،

المنارة للاستشارات

وتخفيفه، والمد والقصر، والفتح والإمالة وما بينهما، وفي الإظهار والإدغام.... وغير ذلك"[27]

- التدريب على فحص التراكيب، وتشريح خواصها، وتتبع جزئياتها للظفر بدلالاتها وقصودها، وهو ما يعرف بعلم المعاني في الدرس البلاغي الذي ينطلق من الضوابط النحوية ليتسلق إلى البنى البلاغية، وذلك لأن " تحليل الجملة يضع في يدي مفتاح دراسة النص الكامل لأنني أنتقل بهذه الأداة المدققة في بناء الجملة من جملة إلى جملة إلى جملة حتى أصل إلى نهاية النص."[28]

البيداغوجيون يرون أن اعتماد هذه الطريقة التصاعدية من المستوى الصوتي مرورا بالمستويات الوسيطة الأخرى وصولا إلى الخطاب ككل هو ما يؤسس لمعرفة لسانية حقيقية، كون ذلك يكسب المتعلم التحكم في ملكتي إنتاج الكلام وفهمه فهما صحيحا.

والخلاصة

إن هذا الصنف من المتعلمين تسهل عليه اللغة تعلما لأن مبتدأ تعلماته ينطلق من لغته الأم، غير أن التحليل يتطلب ذكاء وقريحة كبرى، ولعل هذا يتطلب الكثير من الاشتغال على ملكات الفهم والتأويل، ودربة التعبير الشفهي والكتابي.

ثانيا: فئة الناطقين بغير اللغة العربية:

المنارة للاستشارات

هذه الفئة تتطلب طرائق أكثر فعالية، وهي ما يمكن أن نسميها بتعليمية تعليم العربية للناطقين بغيرها، لأنهم في حاجة إلى طرائق محكمة في الفنولوجيا، لأن ألسنتهم معقودة على تأديات تختلف في الكثير من فونيماتها على طريق النطق في العربية، هذه اللغة التي عرفت منذ منابتها الأولى بالفصاحة والبيان، وهذا الأخير لا ينفكّ عن الجانب النفسي والاجتماعي ناهيك عنه من منظور أنتربولوجي، وهذا المستوى يؤثر على المستوى المعجمي تأدية ودلالة، لأن العربية كما الكثير من اللغات فونيماتها منمازة عن غيرها، وتزداد صعوبة إذا ما أردناها تأديات فصيحة وبليغة.

لهذا نقترح أن:

- تكثف عملية التسميع للقرآن الكريم، حتى تألف آذان هؤلاء المتعلمين وجوه النطق الصحيح، والخروج من تلك العادات النطقية الأجنبية، ولنا في ما نسمعه من الأتراك للعربية، وما نسمعه من الأوربيين خير دليل، وبعد أن تنضج ملكتهم السماعية بحيث تستطيع تقليد الأصوات العربية في تأدياتها، أو تقاربها في تأدياتها وتلويناتها الصوتية على الأقل، وتكرار هذه العملية باستعمال الأجهزة المخبرية، مع القذف بهم في البيئة العربية لفترة طويلة يساعد على التمكن من نطق العربية نطقا صحيحا وإن لم يكن فصيحا فصاحة الفئة الأولى. والعمل على إدارة هذه الألسن على فصاحة العربية ليس أمرا سهلا،

المنارة للاستشارات

وإنما هو جهد جهيد، ودربة مكثفة ابتداء من ذرات مكونات اللغة إلى بناء العربية الرصين في نسجه وفنونه وقصوده.

-لست بصدد ذكر الطرائق النشطة التي ظهرت في علم تعليم اللغات لغير ناطقيها، وهي تدخل في علم الإكتساب اللغوي كالطريقة التسميعية والطريقة الفنولوجية وطريقة المفردات وطريق النسج على المنوال، وتلك النماذج التي أبدعها البيداغوجيون العرب كتمام حسان ومازن الوعر وغيرهما. وإنما حاولت **أن أستنشط التراث ومكاشفة طرائقه لتقديم نماذج تستطيع فك هذا الإشكال خاصة في نظرية إعجازالقرآن.**

الخلاصة:

إن نظرية إعجاز القرآن من خلال مدونتنا الكبيرة سواء لدى المفسرين البيانيين، أو لدى علماء علوم القرآن، أو عند علماء البلاغة والنقد و كذا لدى علماء اللسان والأصوليين قدمت الكثير من الإسهامات التطبيقية في تعليم العربية لفئة العرب الذين تعكّرت أذواقهم، أو أولئك الذين ينطقون بغير عربية القرآن. ولعلّ أهم شيء يجعل نظرية إعجاز القرآن ناجعة هو أن القرآن يعدّ مصدر هذه اللغة، وهؤلاء يكنون له الاحترام ويشتغلون على تعلّمه بكل ما أوتوا من إمكانات الاستماع والتسميع والحفظ و النسج على المنوال ولو عن طريق الإبداع بطريق الاقتباس، والتقليد للمقرئين، وأيضا في تأدية الشعائر

المنارة للاستشارات

كالصلاة، فيجتهدون في سبيل قراءة القرآن إن لم يكن في مستوى الناطقين بالعربية، فهو في مستوى لا ينزل عن ذلك بعيدا.

وقد تعرفنا على طريقين واضحين فرق بينهما عبد القاهر الجرجاني، طريق الجيد عن طريق مراجعة النصوص الإبداعية والنص المعجز وملامسة طرائقه وبناه وتذوق ذلك، وهو المنهج الأول الذي ضُيع في منظوماتنا التربوية والتعليمية، وهذا الطريق يستطيع ممارسته من طرف الكل سواء الذين امّحت سليقتهم، أو فسدت طبائعهم، أو الفئة التي تحب العربية ولكنها لا تنطقها في بيئتها التداولية، وإنما ترتاد إليها عن طريق مشارب كثيرة ومتنوعة، كالجمعيات، والحلق المسجدية ،أو التكوينات المكثفة. والعمل معها يحتاج إلى عمل مخبري كبير، وممارسات لغوية على نمط الانغماس اللغوي والطرائق النشطة الأخرى.

وطريق الجودة وهو يتعلق بالدرجة الأولى بناطقي اللغة العربية، وهو تلك الدروس المتخصصة التي تشتغل على التعريف بالبلاغة القرآنية أو الإعجاز البياني، وهو عمل جاد يؤسس لدرس منهجي يبحث في أسرار العربية، حاله كحال تلك الحلقات التي تقدم للمتخصصين في الجامعة، وطريق الجودة في أصلة لا ينبني إلاّ على طريق الجيد من الكلام والنصوص وفي أعلى سدتها القرآن الكريم.

المنارة للاستشارات

المراجع:

- الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة مصر،طبعة سنة 2006.

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي دار الكتاب العربي لبنان/ دون ت ط.

- تاريخ آداب العربية، لمصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب مصر،ط 2 1985.

-الخصائص لابن جني، تحقيق النجار، طبعة 1982.

-خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة مصر، الطبعة 8، 2009.

- الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة مصر، الطبعة الثانية 2012.

- مداخل إعجاز القرآن، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني مصر الطبعة 2 2014.

- معترك الأقران في أعجاز القرآن جلال الدين السيوطي، تح: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، دون ت ط.

المنارة للاستشارات

[1] - انظر مداخل إعجاز القرآن لمحمود محمد شاكر، لمعرفة وجوه إعجاز القرآن، دار القدس مصر،الطبعة 2 2014.، والذي يهمنا هنا هو الإعجاز البياني، أي الاعجاز الكائن في وصفه، وبيانه ونظمه، ومبانيه وخصائصه للمعهود من خصائص كل نظم وبيان في لغة العرب" ص:162.

[2] - مداخل إعجاز القرآن ، محمود شاكر، ص:173و 174.

[3] - تاريخ آداب العربية، مصطفى صادق الرافعي، ج1/ 78.

[4] - نفسه، ج/1 78.

[5] - نفسه، ج/78.

[6] - معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي، ج1/ ص:4.

[7] - خصائص التراكيب ، محمد محمد أبو موسى، ص: 11.

[8] - الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، محمد محمد أبو موسى، المقدمة ص: "ب".

[9] - نفسه، ص:"ج"

[10] - الخصائص لابن جني، ج343/1.

[11] - نفسه، 343/1

[12] - الشعر الجاهلي، محمد أبو موسى، ص:" و".

[13] - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي،ص:78.

[14] - نفسه، ص:78.

[15] - معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي، ص: ج/1 ص: 5.

[16] - عن معترك الأقران، ج29/1.

المنارة للاستشارات

[17] - انظر معترك الأقران لمزيد تفصيل، ج146/1.

[18] - نفسه، ج1/،ص: 148.

[19] - الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة مصر طبعة 2006.

20 - ينظر التعبير القرآني، لفاضل السامرائي، دار الفجر العراق،ط:1 2008، ص:6.

[21] - الإعجاز البلاغي، ص:34.

[22] - انظر دلائل الإعجاز، 328.

[23] - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص:59. ولمزيد تفصيل ارجع إلى كتاب جمال القراءة وغيره من كتب التجميل الصوتي الأدائي.

[24] - التحقيق هو إعطاء كل حرف حقّه على مقتضى ما قرره العلماء مع ترتيل وتؤدة، والحدر هو إدراج القراءة وسرعتها مع مراعاة شروط الأداء الصحيحة، والتدوير وهو التوسط بين التحقيق والحدر.

[25] - نفسه،ص:61.

[26] - نفسه/ ص:63.

[27] - نفسه:ص:65.

[28] - خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى، مكتبة وهبة مصر، ط8، 2009.، ص:21.

المنارة للاستشارات